القوة المادية والايمان بالمثل العليا

للدكتور محمد يوسف الهندى

لئن سجل تاريخ القرن الماضى انقضاضا من الأمم الغربية المتفوقة فى العدة على الشعوب الشرقية الكثيرة العدد؛ فقد شاهد الجيل الحاضر تنافسا بين الدول الغربية — تنافسا قد أدى إلى صراعين طاحنين. وها هو ذا شبح الحرب الثالثة يلوح فى الأفق، ويقض مضاجع الإنسانية جمعاء، لا فرق فى ذلك بين الذين « لم يريقوا ملء محجم » وبين الذين « دقوا بينهم عطر منشم »

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى اتجهت نية الأقوياء المنتصرين إلى إنشاء نظام يكفل للعالم السلام والهدوء على ما قالوا، ولكن هذا النظام لم يكن فى الواقع يكفل شيئا غير الأوضاع القائمة إذ ذاك لصالح الذين كانوا يرون من حقهم احتكار السيادة على العالم، ولذلك انهار ذلك النظام على أيدى من رأى أن ينازعهم هذا الحق بالقوة (وقد أعيدت التجربة نفسها مع إدخال بعض التحسينات بعد الحرب الأخيرة)

وقد صادف هذا الاتجاه — أعنى اتجاه الأقوياء إلى إبعاد إمكان الحرب فيما بينهم — نضج الوعى القومى فى الشعوب الآسيوية والأفريقية المستعمرة، فبدأ مفكروها وقادتها يبحثون عن الوسائل التى يمكن بها لتلك الشعوب التخلص من نير الاستعمار واسترداد السيادة لأنفسهم على بلادهم، وقد واجه جميعهم مشكلة قهر القوة الغاشمة لتحقيق الحق الأعزل، وإنها لدراسة ممتعة جدا أن يعقد الواحد مقارنة بين الأجوبة التى أتى بها زعماء الشرق الحديث فى الأقطار المختلفة على هذا السؤال، وخلاصة القول أن عددا غير قليل من الذين كانت زعامتهم ترتكز على مقدرتهم لاستثارة الجمهور فقط تجنبوا رسم خطة محدودة فى هذا الصدد؛ بل إنما استعروا بخطب بلاغية وتصريحات جدلية هى عبارة عن التمسك بالحق والمطالبة والتهديد بالإضرار ببعض مصالح المستعمر هنا وهناك. أما الذين سما فكرهم إلى درجة الفلسفة وتنظيم خطة عامة بعيدة المدى فانقسموا قسمين: بعضهم انتهج نهج الاستهانة بقوة السلاح وتعيير القوى باستعمال القوة والعنف، حينما ذهب البعض الآخر إلى مقاومة القوة بالقوة آملين بأن كثرة العدد ربما تفوق وفرة العدة. وقد جرب كثير من الشعوب الشرقية الخطة الأخيرة ولا سيما فى بداية عهد الاستعمار فرأت عواقبها وخيمة، ولذلك أقبلت على الخطة الأولى فدرستها بإعجاب وإن لم تقبلها كمبدإ للحياة القومية

ولنستعرض الآن آراء إقبال، الفيلسوف الشاعر الذى احتفل منذ قريب بالذكرى الثالثة عشرة لوفاته، فى المسائل التى قدمناها آنفاً. لا يفوت إقبالا أبدا أن يحذر من الاستخفاف بالقوة أو إهمال أية وسيلة من وسائل الحصول عليها، فهو لا يتأثر مطلقاً مما يوجهه بعض الناس إلى الإسلام من نقد بناء على روح الجهاد فيه. بل يقول:

« إن الذى يرتجف العالم من بطشه وسفكه هو أولى بأن يلقن مبدأ ترك الجهاد . . . لقد تدججت أوربا بالسلاح للدفاع عن أبهة الباطل . . . إذا كانت الحرب شرا فى الشرق فهى لا بد وأن تكون شرا فى الغرب أيضاً . . . أما محاسبة الإسلام والصفح عن أوربا فذلك ليس من الحق فى شىء »

وكذلك يسخر إقبال من خطة تعيير القوة بالقوة حينما يقص علينا قصة عطيع من الغنم وقع فيه الأسد؛ فتقدمت شاة كانت قد أوتيت دهاء لتزعم القطيع، فاقتنعت فى نفسها بأنه من المستحيل أن تتحول الأغنام أسودا إلا أنه يمكن أن ينحط الأسد إلى درجة الأغنام، وذلك بحمله على الاستحياء من نفسه وقوته، فبدأت تلك

وما مكثوا إلا بقدار ما أتوا ... به من شعار النسك ثم أحرموا

بلبيك لبيك استهلوا وأجهشوا ... ومن ثم للبيت الحرام تيمموا

ثم بدت لهم معالم مكة:

وصرح بالأمر الحداة وبشروا ... وغنوعمو هذا المقام وزمزم

وذابيت رب العرش ما دونه سوى ... ستور عليه بالجلالة ترقم

فألفت عصاها واستقر بها النوى ... وقر عيونا باللقاء المتيم

لبحت بقية

عبد الله عبد الجبار

مدير البعثة السعودية بمصر

الشاة تلقن الأسد مبدأ الاعتزاز بقوة الروح وترك اللحوم وأكل العشب والإيمان بأن الجنة قد خصصت للضعفاء، وأن القوة في الحقيقة نقصان. وهكذا إلى أن وجد الأسد في هذا الواعظ انعكاساً لميله هو إلى الراحة والدعة، فانحط إلى درجة الأغنام وهو يحسب أن ذلك الانحطاط إن هو إلا مدنية وحضارة!

فهذه الخطة في رأي إقبال ليست إلا رياء ودهاء - الدهاء الذي « يزداد وينمو بطبيعة الحال في العبودية والاضطهاد » — ولا يستعمل هذه الخطة إلا الضعيف الذي يئس من كسب القوة؛ وهو إنما يغرر ويضال بها قوياً قد مال إلى الاستكانة

ولكن دعوة إقبال لا تقتصر على « إعداد القوة » — ولا أقول « تمجيد القوة » كما فعل بعض الفلاسفة الألمان — بل، وهذه هي النقطة المهمة، هو يدعو أيضاً إلى البحث عن القيم الأخلاقية والمثل العليا في الحياة الإنسانية والإيمان بها والعمل لها، حتى لا يكون استعمال القوة إلا لحفظ ونشر تلك القيم والمثل التي تكفل الخير للعالم! أما إذا وجدت القوة منفصلة عن القيم الأخلاقية والمثل العليا فلا شك أنها تعود شراً لا شر بعده كما يتمثل ذلك الشر في أعمال الإسكندر وجنكيز. إذن فالقوة في حد ذاتها ليست شراً ولا خيراً، بل إنما يحكم عليها بهذا أو بذاك بالنسبة إلى وجود الغايات النبيلة أو انعدامها فيمن يملكها. ومن الضروري في هذا المقام أن نوضح أن إقبالاً لا يدعو إلى الثورة أو الثورة المرتجلة التي لا تتعدى الإضراب عن العمل وتحطيم عربات الترام وما إلى ذلك من أعمال الهدم والتخريب، لا؛ بل هو يدعو إلى إعداد القوة بالطرق العلمية والفنية — « بالتسلط على قوى الفطرة » بعبارته هو — أي بنفس الطرق التي هي الميزة الكبرى للحياة الغربية والتي هي أوثق صلة بنبوغ الغربيين من الزي الغربي والحروف اللاطينية واستباحة الرقص والخمر. ولا يخفى أن هذا الطريق الذي يدعو إليه إقبال إنما هو طريق شاق طويل يحتاج إلى التأني والصبر والجلد، ولذلك تراه ينبري في أشد الأوقات حرجاً فلا يبالي بأن يتهمه أحد بمهادنة المستعمر وينصح مواطنيه « بإبقاء الطرب على فم الدن حتى يدرك الخمر النضج » أي بالتريث ومواصلة العمل إلى أن يستكملوا العدة. وخلاصة القول أنه كان يدعو إلى إعداد القوة التي تكفل الإنشاء والتعمير وخلق الأوضاع الجديدة، لا إلى مظاهرة قوة التخريب وإلحاق بعض المتاعب بالمستعمر التي هي عثابة ما تلجأ إليه المرأة الناشز من زوجها في بعض الأحيان ليس إلا

ولا يصعب أن نستنتج مما سبق نظرة إقبال إلى المحاولات التي بذلت ولا تزال تبذل لتنظيم الأمن الدولي، فهو الذي قال عن عصبة الأمم البائدة إنها « منظمة أقامها بعض لصوص الأكفان لتقسيم القبور فيما بينهم » وقال عنها أيضاً إنها « حظية الأفرنج العجوز تعتمد على تمائم إبليس لبقائها لبعض الوقت » — ونظرة إقبال هذه مبنية على أنه لا يرتاح أبداً إلى القوة، سواء أكانت تلك القوة قائمة على السيف والرمح أم القنبلة الذرية، في يد من ليس عنده رادع من الإيمان بالقيم الأخلاقية والمثل العليا. وهو أيضاً يرى أن لا خير يرجى للانسانية من أية محاولة للتحديد والإشراف على وسائل القوة، لأن الذي يضمر الخبث يمكر صفو الأمن ولو بدون أي سلاح، بل الخير كل الخير في أن تجتمع القوة المادية والإيمان بالمثل العليا في أمة أو أمم من العالم حتى تزجر القوة من تلقاء نفسها عن التمادي في الطغيان، وفي الوقت نفسه تكون تلك القوة ضماناً لنشر وتقوية المثل العليا في العالم، وحفظها من أن تنتهك على يد أي طاغية أثيم

ثم يعبر إقبال عن رأيه الذي وصل إليه لا عن طريق التعصب للعقيدة التي ورثها عن أبيه؛ بل عن طريق البحث العلمي والفكر الفلسفي، من أن الأمة الإسلامية هي التي تمتاز من بين جميع الأمم بالقيم الأخلاقية والمثل العليا التي تجعلها جديرة بأن تزعم قضية الأمن والسلام في العالم. إلا أنها في الوقت الحاضر تفتقر إلى القوة وذلك نتيجة لإهمالها الوسائل العلمية والفنية التي توجد القوة. وكم يتمنى إقبال لو اجتمع للأمة الإسلامية، إلى جانب المثل العليا، القوة التي تسندها وتؤازرها حتى تتمكن هذه الأمة من أن تلعب دوراً فعالاً لرخاء الإنسانية ورفاهيتها. وكثيراً ما يردد إقبال وقعة إسلام التتار، فإن التتار، قبل أن يسلموا، كانوا يمتلكون القوة المحضة، أما المسلمون فقد ظلوا إبان انهزامهم حفظة للقيم الأخلاقية العزلاء من القوة حتى أسلم التتار، فكان ذلك بمثابة قران سعيد بين القوة والمثل العليا، كأن الإسلام استبدل سيفاً جديداً صارماً بسيف مفلول، وهكذا ا تمرت عظمته بضعة

هاجرة السودان الوطنية

أم درمان

للأستاذ على المهارى

لعل الشرقيين أزهد الشعوب فى معرفة بلادهم ، فالحديث عنها ليس بالمذب المستساغ عند أكثرهم ، وربما بقى الواحد من مثقفيهم الدهر الطويل فى مدينة من المدن دون أن يعرف كثيرا

قرون أخرى

ولكن على الأمة الإسلامية واجبا آخر وهو التعمق فى دراسة المبادئ الإسلامية و التشبث بها والإخلاص لها ريثما تتقدم بخطى ثابتة لاستكمال القوة، وذلك لأن الضعيف ربما يفقد الثقة فى نفسه وفى مبادئه. وهل من شك فى أن الأمة الإسلامية إن هى تخلت عن مبادئها لحصولها على القوة سوف لا يكون ذا مغزى كبير . ولعل من مظاهر هذا التخلى عن المبادئ السامية تخاذل الشعوب الإسلامية لأعراض تافهة خسيسة ، واعتبارات دبلوماسية مغرضة . ألا فلتسترد هذه الأمة الثقة بنفسها والإيمان بمبادئها حتى تثبت جدارتها لمزاولة القوة فى سبيل خير الإنسانية

وأخيرا تتلخص مأساة « إنسان العصر الحاضر » عند إقبال فى قوله :

العشق يقصده والعقل ينهشه
لا يستطيع قياد العقل بالنظر
دور الكواكب لا يخفى على درك
لا يستطيع هدى فى عالم الفكر

العشق هو الإيمان بالمبادئ العليا . والعقل هو التقدم فى العلوم والفنون . والنظر هو الشعور بالمسئولية أمام الله

محمد يوسف

أو قليلا عن تاريخها ومعالمها . وقد يقرأ فى كل كتاب إلا الكتاب الذى يتحدث عن البلدان وتاريخها ، وعما فيها من آثار قديمة أو منشآت حديثة . ولا أنس أبدا أنى كنت مسافرا مرة فى القطار الذى يجرح القاهرة إلى أسوان ، وكان يجانبى رجل فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، ويبدو من هيئة حديثه أنه من ذوى الثراء ، وتشعب بنا الحديث فنونا حتى وصل القطار إلى مدينة المنيا عروس الصعيد ، فأطل الرجل من النافذة ثم عاد وفى وجهه آثار الدهشة والاستغراب وقال بلهجة المأخوذ : غريبة ! إن فى هذا البلد شوارع منظمة وأبنية جميلة ؟ قلت له : أمصرى أنت ؟ قال : نعم . قلت أين تعيش ؟ قال : فى الإسكندرية ، قلت : أظنك تعرف روما وباريس ولندن معرفة دقيقة . قال نعم ، قلت : أما سافرت أبدا إلى الصعيد ؟ قال : لا ، والفكرة التى فى ذهنى عنها تختلف كل الاختلاف عما أراه الآن . قلت : ماهذا ، لست مصريا وإن كان اسمك رمسيس الأول !!

كما لا أنس أنى لقيت رجلا مثقفا قضى فى مدينة أم درمان أكثر من أربع سنوات ، وهو يسكن فى الجانب الغربى منها جد قريب من دار المعهد العلمى ، وقد جرى مرة بيننا حديث فى شؤون المعهد فسألنى أين تقع دار هذا المعهد ؟

وفى يقينى أن هذا الجهل يرجع إلى ضعف الشعور القومى فى النفوس ، فإنه كلما قوى هذا الشعور أحس صاحبه أن كل شبر من أرض الوطن إنما هو ملكه ، حتم عليه أن يعرفه ، وأن يعرف تاريخه ، وطبعى أنى لا أقصد أن كل المثقفين يجهلون معالم أوطانهم ، وإنما أعنى أن الجمهرة الغالبة لا تعنى بهذه الناحية العناية الواجبة ، وقد حملنى على كتابة هذا المقال ما لمسته فى كثير من المتعلمين عندنا من جهل بشؤون المدن السودانية ،

* * *

ينساب النيل الأبيض منحدرا من المنطقة الاستوائية ، ويجرى النيل الأزرق هابطا من مرتفعات الحبشة ، ويمران بمدينة الخرطوم ، أحدهما على جانبها الغربى ، والآخر على جانبها الشرقى ، وما يكادان يصلان إلى نهايتها الغربية البحرية حتى يلتقيا ، ثم يسيران متماسكين مسافة قصيرة ، ويستطيع النظر